الفصل الأول

شتاء عام ١٩٦٧ كان ثقيلاً يرفض الرحيل ويزاحم الربيع الذي يحاول الإطلال بشمسه المشرقة الدافئة، فيدافعه الشتاء بغيوم تتلبد بالسماء، وإذا بالمطر ينهمر غزيراً من السماء فيغرق تلك البيوت البسيطة في مخيم الشاطئ للاجئين بمدينة غزة وتجري السيول في أزقة المخيم فتقتحم البيوت وتزاحم ساكنيها في غرفهم الصغيرة ذات الأرضيات المنخفضة عن مستوى الشارع القريب.

مراراً وتكراراً تدفقت مياه سيول الشتاء إلى ساحة دارنا الصغيرة ثم تدفقت إلى داخل هذه الدار التي تسكنها عائلتنا منذ بدأ الحال يستقر بها بعد أن هاجرت من بلدة الفلوجة في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨، وفي كل مرة يدب الفزع بي وبإخواني الثلاثة وأختيّ وخمستهم كانوا يكبرونني سناً فيهب أبي وأمي إلينا ليرفعونا عن الأرض، ولترفع أمي الفراش قبل أن تبلله المياه التي اقتحمت علينا بيتنا البسيط، ولأنني كنت الأصغر كنت أتعلق في رقبة أمي إلى جوار أختي الرضيعة التي كانت في العادة على ذراعيها في مثل هذه الحالات.

مرات عديدة استيقظت ليلاً على أيدي أمي تزيحني جانباً وتضع على فراشها إلى جواري تماماً (طنجرة) الألمنيوم أو صحن الفخار الكبير لتسقط فيه قطرات الماء التي تتسرب من التشقق في سقف القرميد الذي يغطي تلك الغرفة الصغيرة، طنجرة هنا وصحن من الفخار هناك وإناء ثالث في مكان آخر. أحاول في كل مرة النوم فأفلح أحياناً ثم أستيقظ على صوت قطرات الماء وهي ترتطم بما تجمع من مياه في ذلك الإناء بصورة منتظمة، وعندما يمتلئ الوعاء أو يشارف على الامتلاء يصبح رذاذ الماء يتراشق عليه مع كل قطرة، فتهب أمي لتضع وعاءً جديداً مكان الذي أمتلأ وتخرج لتسكبه خارج الغرفة.

كنت في الخامسة من عمري وفي صبيحة يوم من أيام الشتاء تحاول شمس الربيع أن تحتل مكانها الطبيعي لتزيل آثار هجوم الشتاء الليلي الكالح على المخيم، فيأخذ أخي محمد ابن السابعة بيدي ونسير في طرقات المخيم إلى أطرافه حيث يرابط معسكر للجيش المصري.

كان الجنود المصريون في ذلك المعسكر يحبوننا كثيراً، أحدهم تعرف علينا وعرفنا بالأسماء، فإذا ما أطللنا نادى علينا...محمد أحمد...تعالا هنا... فنذهب إليه ونقف إلى جواره نتذلل ونحني رؤوسنا في انتظار ما سيعطينا كالعادة فيمد يده إلى جيب بنطاله العسكري ويخرج لكل واحد منا قطعة من حلوى الفستقية يلتقط كل واحد منا قطعته ويبدأ بقضمها بنهم شديد، يُربّت ذلك الجندي على أكتافنا ويمسح على رؤوسنا ويأمرنا بالرجوع إلى البيت فنبدأ بجرجرة أرجلنا عائدين في طرقات المخيم.

رحل الشتاء بعد طول مكث وشدة وبدأ الجو يصبح دافئاً ورائعاً ولم يعد المطر يداهمنا بويلاته ظننت أن وقتاً طويلاً قد مرّ على انتظار الشتاء وأنه لن يعود قريباً ولكني أرى حالة من القلق والإرباك من حولي، فالأهل كلهم في وضع أسوأ بكثير من أوضاع تلك الليلة الماطرة، لم أكن قادراً على إدراك ما يجري حولي ولكن الأمر لم يكن طبيعياً ولا حتى في ليالي الشتاء والدتي تملأ كل ما لديها من أوعية بالماء، وتضع تلك الأوعية في ساحة الدار، وأبي استعار (الطورية) الفأس من الجيران وبدأ بإعداد حفرة كبيرة طويلة في الساحة التي كانت أمام البيت وأخي محمود يساعده بعض الشيء فقد كان عمره حينها (١٢سنة).

بعد أن جهزا الحفرة بدأ أبي بوضع قطع من الخشب عليها ثم بدأ بتغطيتها بألواح الصاج (الزينكو) التي كانت تغطي جزءاً من ساحة الدار كعريش. أدركت أن والدي في مأزق حيث بدأ يلتفت باحثاً عن شيء ثم رأيته قد بدأ بخلع باب المطبخ ودفنه فوق تلك الحفرة، ولكني رأيت أمي وأخي محمود ينزلان إلى تلك الحفرة من فتحة لا زالت لم تغلق، حينها أدركت أن العمل قد انتهى. تجرأت على الاقتراب من تلك الفتحة لأطل في تلك الحفرة فوجدت ما يشبه الغرفة المظلمة تحت الأرض، ولم أفهم شيئاً ولكن كان واضحاً أننا ننتظر شيئاً صعباً وغير عادي، ويبدو أنه أقسى بكثير من تلك الليالي الممطرة العاصفة.

لم يعد أحد يأخذ بيدي من جديد ليأخذني إلى معسكر الجيش المصري القريب لنأخذ قسطاً من (الفستقية) بل رفض أخي مراراً فعل ذلك، وهو التغيير الكبير بالنسبة لي ولمحمد، ولم أكن قادراً على فهمه؛ كذلك حسن لم يكن يعرف سرنا هذا، ولعله كان يعرف ولكنه لم يكن شريكنا فيه، ولم أكن أعرف لماذا لم يشاركنا الأمس؟ ولكن ابن عمي إبراهيم الذي كان في سن قريبة من سني، والذي كان يسكن في البيت المجاور لنا كان على علم بالأمر.

لما رفض محمد الذهاب واصطحابي ذهبت إلى دار عمي لأكون برفقة إبـراهيم، دفعت الباب ودخلت في الغرفة كان يجلس عمي الذي لم أستطع يوماً تذكر ملامح وجهه، وبيده بندقية وهو يقوم بإصلاحها وقلت في نفسي لعلي أعمل شيئاً مشـابهاً بهـا، شـدت البندقية انتباهي، حيث كان نظري يتركز عليها طيلة الوقت.

ناداني عمي وأجلسني إلى جواره، ووضع البندقية على يديّ، وبدأ يتحـدث معـي عنها بحديث لم أكن قادراً على فهمه، ثم مسح على رأسـي وأخرجنـي مـن الغرفـة، واصطحبت إبراهيم وخرجنا من البيت متوجهين إلى أطراف المخيم، لنذهب إلى معسكر الجيش المصري القريب.

حين وصلنا كانت الأمور قد تغيرت تماماً، ذلك الجندي لم ينتظرنا كالعـادة ولـم يرحب بنا، الوضع لم يكن طبيعياً والجنود المصريون اعتادوا علـى اسـتقبالنا بحفـاوة وترحاب، صرخوا علينا أن نبتعد وأن نرجع إلى أمهاتنا فقفلنا راجعين نجر أذيال الخيبة، إذ لم نحصل على نصيبنا من الفستقية، ولم أكن قادراً على فهم ما حدث من تغيرات، في اليوم التالي أخذت أمي بعض الفراش من البيت وفرشته في تلك الحفرة، ونقلت إبريقين أو ثلاثة من الماء وبعض الطعام وأخذتنا جميعاً إلى تلك الحفرة وأجلستنا فيها، ثم انضـمت إلينا زوجة عمي وأبناؤها حسن وإبراهيم، كنت متضايقاً من ذلك المكان الضـيق الـذي حشرنا فيه دون سبب أعرفه، وقد تركنا الدار وغرفها وساحتها وشوارع أو أزقة الحـارة ووضعنا هنا رغماً عنا، وكلما حاولت الخروج أو الاندفاع نحو الفتحـة سـحبتني أمـي وأجلستني مكاني في الداخل، بين الحين والآخر كانت تعطي أنا كسرة من الخبز وبضـع زيتونات.

بدأت الشمس بالغياب وضوء النهار يتلاشى والظلام يزداد في الحفرة التي أوينـا إليها وبدأ الخوف يتسرب إلى نفوسنا نحن الصغار فبدأنا نتصايح ونتدافع للخروج، وأمي وزوجة عمي تمنعاننا ثم نحاول الخروج فتصرخان يا أولاد الدنيا حرب ألا تعرفون معنى الحرب، حينها لم أكن أعرف معنى الحرب ولكنني عرفت أنها شيء مخيف غير عادي، ومظلم وخانق.

تكرر تدافعنا وتكرر منعنا من الخروج فبدأت أصوات بكائنا تعلو تـدريجياً، وهمـا تحاولان تهدئتنا دون جدوى، حينها قال محمود هل أحضر السراج يا أمي لنشعله (ياما أجيب الضو نولعه) فأجابت نعم يا محمود، اندفع محمود يخرج من الخندق فسبقت إليه يد أمي لتمسك به وتمنعه من الخروج وهي تقول لا تخرج يا محمود (تطلعش ياما).